خليفة أدركته حرفة الأدب

لما ضعف أمر الدولة الأموية بالأندلس فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وألحت عليها الخطوب ، وتوالت الأحداث الجسام ، وهزلت شخصية خلفائها المتأخرين فلم يستطيعوا السيطرة على الموقف ، وتذليل الصعاب ، ومعالجة العقد المؤربة والمشكلات المستعصية ، مكن ذلك أسرة نازحة من المغرب الأقصى تنتمى إلى العلويين من أن تثب على العرش وتتقلد الخلافة ، وهذه الأسرة هم بنو حمود ، ولكن هذه الأسرة العلوية الأصل البربرية المنشأ والنزعة عزها الامتزاج بأهل الأندلس ، واجتذاب قلوبهم ، وكان أهل الأندلس مكونين من عناصر متنافرة لم يتم توحيدها ، وقد مردوا على الشقاق ، وألفوا الثورة وتعودوا العصيان والمخالفة ، فلم يكن حكمهم وكبح جماحهم من الأمور الهينة ، ولم يوفق فى التغلب على عوامل الفتنة والتمرد والانتقاض سوى بعض الشخصيات القوية الجبارة القليلة النظير فى التاريخ مثل الداخل والناصر والمنصور ابن أبى عامر ، وقد كلفهم ذلك الكثير من إراقة الدماء وإزهاق الأرواح حتى كاد يظهرهم على صفحات التاريخ بمظهر الجلادين والسفاحين ، ووجود أمثال هؤلاء الرجال الأفذاذ ليس ميسوراً فى شتى الظروف والأحوال ، ولذا لم تعرف الأندلس الهدوء النسبى والاستقرار إلا فى فترات قصيرة مقتضبة ، وكانت على الدوام فى غمرة العواصف والأنواء ، ومما زاد فى متاعب بنى حمود وأوهن سلطانهم أنهم لم يكونوا أسرة متماسكة قوية العصبية ، ولذا هان على الأندلسيين أمرهم ، واستطاعوا التغلب عليهم ، وعقد أهل قرطبة – قاعدة الخلافة – العزم

على أن يعيدوا الأمر إلى الأمويين ، وأن يجلسوا خليفة منهم على العرش ، وأرادوا أن يكون ذلك بطريقة سلمية اختيارية حسماً للخلاف ، وليكون عرش الخليفة مؤيداً من مختلف الأحزاب والشيع والطبقات ، ووقع الاختيار على ثلاثة من بقايا الأسرة الأموية ، وهم عبد الرحمن بن هشام – وهو أخو المهدى أحد الخلفاء السابقين – وسليمان بن المرتضى – والمرتضى هو أحد الأمراء الأمويين الذين حاولوا إسقاط بنى حمود وقد أخفق وقتل – ومحمد العراقى .

وكان الوزراء واثقين أن الذى سيفوز من المرشحين لنيل الخلافة هو سليمان ابن المرتضى إلى حد أن أحمد بن برد تقدم فى عقدها باسمه ، ولكن جاء ما أخلف ظنه وتقديره ، وقد كان المؤرخ الأندلسى ابن حيان حاضر أمر هذا الانتخاب ، وقد صوره تصويراً واضحاً فى قوله «كان أول من وافى منهم سليمان بن المرتضى جاء مع عبد الله بن مخامس الوزير فى أبهة وشارة دلت على المراد فيه ، فدخل من باب الوزراء الغربى والسرور باد عليه ، فاستقبله أصحابه ، وقدموه إلى بهو الساباط ، فأجلس هنالك على مرتبة لا تصلح لأحد سواه وهو بهج جذلان لا يشك فى تمام الأمر له وأصحابه يرتقبون مجىء ابنى عمه المذكورين – وقد أبطآ – كيما يحصلوهما عنده ، فبينما نحن على ذلك ، والقلق على القوم باد ، إذ غشيتنا ضجة وزعقة هائلة ارتج لها الجامع واضطرب لها من بالمقصورة ، فإذا عبد الرحمن بن هشام قد وافى شرقى الجامع فى خلق عظيم من الجند والعامة ، وقد تكنفه أميرا الدائرة محمود وعمير فى رجالهما شاهرين سيفيهما أمامه لهجين باسمه ، فراع الوزراء ذلك ، وألقوا للوقت بأيديهم ، وخذلتهم حيلهم ، ودخل المقصورة عبد الرحمن فبويع لوقته ، واستدعى سليمان بن المرتضى وجىء به مبهوتاً فقبل يده وهنأه فأجلسه

إلى جانبه ، ثم وافى محمد بن العراق أيضاً فقبل يده وبايعه . ثم عقدت له البيعة ، وذلك اليوم الرابع من شهر رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة » واضطر أحمد بن برد إلى أن يبشر اسم سليمان ويحكه ويكتب اسم عبد الرحمن مكانه . ولقب بالخليفة المستظهر بالله .

وأراد الخليفة الجديد أن يأخذ حذره ويحكم أمره فاحتبس ابنى عمه سليمان وابن العراق فى قصره حبساً غير مرهق ، وكان هذا الخليفة شاباً لا تتجاوز سنه الثالثة والعشرين فى رواية ابن حيان والثانية والعشرين فى رواية عبد الواحد المراكشى ، وقد أجمع كلاهما على أنه كان فتى قد حنكته التجارب ، وعانى الخطوب ، وتمرس بالآفات ، ويقول فيه عبد الواحد « إنه كان فى غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس ، ويصفه ابن حيان بأنه كان « لبقاً ذكيًّا لوذعيًّا لم يكن فى بيته يومئذ أبرع منه منزلة » .

وحاول أن يثبت قدمه ويوطد خلافته فقرب الوزراء من بقايا موالى الأمويين وأنصارهم ليعيدوا إلى الخلافة الأموية سابق قوتها وقديم مجدها ، وقدمهم على سائر رجال الدولة ، فأحقد ذلك أعيان الدولة وأوغر صدورهم ، وكان من بين الوزراء الذين قربهم الخليفة الشاب أبو محمد بن حزم الإمام الذائع الصيت الخالد الأثر وابن عمه عبد الوهاب وأديب الأندلس الكبير ابن شهيد صاحب رسالة التوابع والزوابع .

وكانت الحالة الاقتصادية شديدة الاضطراب ، فقد أنضبت الثورات المتوالية موارد الدولة ، وتعطلت المرافق ، وكسدت الأسواق ، وكثر المتبطلون ، وتراءت نذر الثورة ، وتحركت الرغبة فى الفتك والإباحة ، وفسدت سير الناس ، وخرقت هيبة الحاكمين ، ويشعر الإنسان وهو يطالع قصة تلك الأيام الشداد النكدات ورواية ذلك العصر المشتعل بالفتن التى توهن الحأش بأن ذلك

الخليفة الأديب الموهوب المرهف الحس الرقيق النفس لم يكن منها فى السياق الملائم ، وأنه أتى ذلك الزمان على شيخوخته وهرمه فلم تسره أحداثه ولم يجد فيه مكانه المناسب ، ومؤرخ تلك الأيام الحالكة الظلام التى كثرت فيها الخطوب والفواجع واختلفت الناس شيعاً متنافرة قد يطيب له فى خلال هذا الشقاء الطامى والظلام الشامل أن يرى ضوءاً مشرقاً ، ويواجه عاطفة نبيلة ، ويطالع آية من آيات سمو الأخلاق وبراءة الشعور وعفة النفس ، فقد أحب هذا الخليفة النقى الصفحة فى مطالع حياته ابنة عمه حبيبة بنت الخليفة سليمان – أحد الخلفاء السابقين – وملأ هذا الحب الصافى الخالص قلبه ، وملك عليه مذاهبه ، ولكن توسلاته وشفاعاته وصباباته التى كان يضمنها شعره السهل السائغ ذهبت عبثاً ، فقد كانت أم الحبيبة – واسمها مشنف – تلويه عنها ، وتعارض فى زواجه منها ، وأعلنت هذا الخطيب الشاب المحب أن عليه أن ينتظر الفرصة المناسبة ، وقد نفس عن كربته وبث آلامه فى هذه الأبيات :

وجالبة عذراً لتصرف رغبتى ... وتأبى المعالى أن تجيز لها عذرا
يكلفها الأهلون ردى جهالة ... وهل حسن بالشمس أن تمنع البدرا
وماذا على أم الحبيبة إذ رأت ... جلالة قدرى أن أكون لها صهرا
جعلت لها شرطاً علىّ تعبدى ... وسقت إليها فى الهوى مهجتى مهرا
تعلقتها من عبد شمس غريرة ... محدرة من صيد آبائها غرا
-مامة عش العيشميين رفرفت ... فطرت إليها من سراتهم صقرا
وإنى لأستشفى بمرى بداركم ... هدوءاً وأستسقى لساكنها القطرا
وألصق أحشائى ببرد ترابها ... لأطفئ من نار الأسى بكم جمرا
وإنى لأولى الناس من قومها بها ... وأنبههم ذكراً وأرفعهم قدرا

ولسنا نعرف هل كانت هذه الفتاة الحسناء – على الأرجح – تبادله حبًّا

بحب أو لا لأن المراجع التى تيسر لى استشارتها لم تذكر شيئاً فى هذا الموضوع . ولكنها على ما يظهر قد تأثرت بما يقدمه لها عبد الرحمن من خشوع وخضوع ، فقد التقيا مرة فى الطريق ، وتقابلت العيون فلم تستطع الثبات لنظراته الملتهبة الهائمة . وغضت طرفها من فرط الحياء ، وأخذها الاضطراب فلم ترد تحيته ، وأساء عبد الرحمن تفسير سلوكها ، وظنه ترفعاً وازوراراً فكتب إليها :

سلام على من لم يجد بكلامه ... ولم يرنى أهلا لرد سلامه
سلام على الرامى الذى كلما رمى ... أصاب فؤادى عامداً بسهامه
بنفسى حبيب لم يجد لمحبه ... بطيف خيال زائر فى منامه
ألم تعلمى ياعذبة الاسم أننى ... فتى فيك مخلوع عذار لجامه
وأنى وفى حافظ لأزمتى ... إذا لم يقل غيرى يحفظ زمامه
وما شك طرفى أن طرفك مسعدى ... ومنقذ قلبى من حبال غرامه
عليك سلام الله من ذى تحية ... وإن كان هذا زائداً فى احترامه

والظاهر أن عبد الرحمن لم يحظ بيدها ، وكان سيئ الحظ فى حياته العاطفية ، ويبدو أن غادة أخرى حسناء كانت تعطف عليه ، وترق له ، ولكنها برغم ذلك لم تف بوعدها كما تشى به هذه الأبيات :

طال عمر الليل عندى ... مذ تولعت بصدى
يا غزالاً نقض الود ... ولم يوف بعهدى
أنسيت العهد إذ بتنا ... على مفرش ورد
واجتمعنا فى وشاح ... وانتظمنا نظم عقد
وتعانقنا كغصنين ... وقدانا كقد
ونجوم الليل تحكى ... ذهباً فى لازورد

على أن هذا الخليفة المحب المضطرم العاطفة ، والشاعر الذى قد يرضى شعره صيارفة الكلام وجهابذة النقد لا يمكن أن توجه إليه الاستهانة بأمور الدولة والانصراف إلى قرض الشعر مثل أكثر الشعراء الذين يسترسلون مع الخيال ، ويذهلون عن الواقع ، ويمكن أن يقال إنه كان حسن الإدارة نهاضاً بالأعباء ، مقدراً لتبعته ، وقد صهرته الخطوب وثقفته الحوادث ، ولكن كان للأخطار والفتن والدسائس حوله زخرة وعباب ، وكان الموقف يكاد يستعصى على العلاج ويغرى باليأس ، فقد كان الوزراء الذين يؤيدونه من صفوة مفكرى الأندلس وأدبائها وأعلام رجالها ، ولكن مواهبهم وملكاتهم وقدراتهم كانت محسوبة عليهم ، والأندلسيون كانت تغلب عليهم الشدة فى أمور الدين ، ولذا كانوا يعيبون على هؤلاء الوزراء تسامحهم فى الأمور الدينية واتساع آفاقهم ، وكان الأعيان والصفوة الأكبر سنًّا قد مالوا إلى ترشيح سليمان بن المرتضى ، ولما أخفق سليمان عملوا على تمكينه من الخلافة وخلع عبد الرحمن حتى اضطر عبد الرحمن إلى أن يأخذهم بشىء من الشدة ، وقبض عليهم وصادر أموالهم ، واسترجحه بعض الخاصة فى القبض على هؤلاء الناس الخارجين عليه والساعين فى هدمه ورجوا استظهاره على الأمر بإزالتهم .

وكان لعبد الرحمن ابن عم اسمه محمد بن عبد الرحمن من سلالة الناصر ، وكان فى غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وكان له صديق حائك يعرف بأحمد بن خالد ، وكان هو الذى يدبر له أمره و يمده بنصائحه . وقد بلغ هذا الرجل من هوان الأمر أن الذين فكروا فى ترشيح بعض رجال البيت الأموى لم يفكروا فيه ولم يذكروا اسمه ، وقد أحقده ذلك وأغضبه ، وكان له اتصال بطبقة العمال ومكانة فى نفوسهم ، وكانوا يرون خشونته وكثافة نفسه وجمود ظله رقة ودماثة وتواضعاً ، فقوى اتصالهم به ، وقد استطاع بمعاونة

صديقه الحائك أن يثير ثائرتهم ويستنهضهم لتأييده والمطالبة بحقه فى الخلافة ، ولوح لهم بأنه سيمكنهم من النهب والسلب ، ومهد السبيل لثورة خطيرة وانقلاب سريع .

وفى بادئ الأمر لم يكن هناك خوف من انضمام الغوغاء والدهماء إلى الصفوة المتذمرة والعلية الناقمة . لأن هؤلاء النبلاء كانوا يؤيدون مرشحين آخرين ، ولكن اتفق فى هذا الظرف العصيب أن مات سليمان ابن المرتضى ، فمهد ذلك السبيل لانضمام الأعيان إلى سواد الشعب . وسعى للتقريب بينهما رجل من الخاصة اسمه ابن عمران كان أحد الرهط الذين سجنهم عبد الرحمن ، وبدا له أن يخرجه من السجن ويقربه ، وقد حذره عاقبة ذلك بعض أصحابه الذين يعرفون سوء طوية هذا الرجل ، وقالوا له «إن مشى ابن عمران فى غير سجنك . باغاً بتر من عمرك عاماً» ، ولكنه عصاهم ولم يأخذ بنصيحتهم . وكان قد ورد عليه قبل إطلاقه بيومين فوارس من البربر ، فكرم مثواهم ، واحتفى بهم ، وأنزلهم معه فى دار الخلافة . فقد شعر بحرج موقفه ، وأدرك أنه ليس له نصير ، وأراد أن يتقوى بالبربر ، فاهتاج لذلك رجال الحرس ولم يستطيعوا كتمان تذمرهم ، وقالو «نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا وتمكينهم من نواحينا» وهاجوا العامة ، وكان الشعب متحفزاً للثورة ومنتظراً أول إشارة وفى لحظة لم يكن عبد الرحمن ينتظر فيها شيئاً اندفع الشعب إلى القصر وانتشر الرجالة على سقفه ، وسمع المسجونون عنده هتاف الناس فاستغاثوهم فأطلقوا سراحهم ، وأحيط بعبد الرحمن من كل ناحية فاستغاث بالوزراء فلم يجدوا له خلاصاً ، وكانوا لا يصدقون بنجاة أنفسهم وشغلوا عنه بالتفكير فى الهرب . وأشار عليهم رجال الحرس بترك الخليفة وإفراده ، فلما تعجلوا الفرار وهموا بالخروج من باب

الحمام من القصر قاومهم رجال الحرس وأوقعوا بهم ، وجاء عبد الرحمن إلى ذلك الباب يطمع فى الخروج فقام الحرس فى وجهه ودفعوه برماحهم وسبوه ، فارتد على عقبه ، وترجل عن فرسه ، وتجرد من ثيابه حتى بقى فى قميصه واستخفى فى أبزن الحمام . واستخفى البرابرة فى أكناف القصر . فبحث عنهم وقتلوا ، وافتقد عبد الرحمن فوجدوه فى أبزن الحمام قد انطوى انطواء الحية فى مكان حرج . فأخرج فى قميص مسود بحال قبيحة . وجىء به إلى الخليفة الجديد الذى لقب بالمستكفى . وقتله بعض الرجالة القائمين على رأسه . فتهلل وجه الخليفة الذى أنجب الأديبة المشهورة ولادة صاحبة ابن زيدون وغيره من الكتاب والشعراء . وكانت خلافة المستظهر إلى أن قتل سبعة وأربعين يوماً .

وهكذا كانت خاتمة هذا الخليفة الأديب الذى أساء إليه زمنه وجاء فى غير وقته ، وأفسح المكان ليحل محله خليفة جاهل يدبر له أمره رجل حائك . وكان عبد الرحمن آخر شخصية تتقاضاك الاحترام جلست على عرش الخلافة الأموية بالأندلس . وقد كان يلوذ فى أزمانه بالشعر ويعتصم بالأدب ، وقد زعموا أنه قال يوم الوثوب عليه وقتله :

يأيها القمر المنير كن نحو شبهك لى سفير
بتحية أودعتها شوقاً بنيات الصدور

ولقد كان هذا الرجل جديراً بميتة أكرم من هذه الميتة ، وخليقاً بمصير أحسن وأمجد من هذا المصير ، ولكن هكذا كانت قسوة القدر وأحكام الزمن ، ومصرعه يشبه من بعض الوجوه مصرع ضريبه الخليفة العباسى الشاعر الأديب ابن المعتز الذى قال فيه أحد الشعراء :

ما فيه لو ولاليت فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب